قصص قصيرة من الإمارات

خان (شراسة الجبل.. سلام البحر)

ابراهيم مبارك*

قبل ستة وعشرين عاماً، يتذكّر أنه استمع جيّداً إلى حديث محمد خان الهامّ. كان الليل شديد، الظلمة، والقارب يقترب من الساحل، والركّاب في ذعر شديد، ومحمد خان يُطمئن الجميع. لقد جاء إلى هذه المنطقة أكثر من خمسين مرة ثم كان يعود مرة أخرى إلى باكستان وأفغانستان دون أن يعلم به أحد.

قال:

«عندما يصل القارب إلى الشاطئ عليكم أن تتقافزوا سريعاً ثم تتفرّقوا في كل الجهات. اختبئوا تحت أي شيء إذا شاهدتم ما يريب. تسلّلوا واحداً واحداً إلى الطرقات والشوارع في الصباح وسوف تصادفون الكثير من السيارات العابرة أو سيارات الأجرة.

«لن يظنّ بكم أحد، لا أحد يحرس الحدود هنا. لا تقتربوا من البيوت الكبيرة المقامة على الشاطئ، إنها عادة ما تكون محاطة بالحرس.

«بعد أسبوع سوف نلتقي في ديره.. اسألوا عن السبخه... البلد تعجّ بالأفغان والهنود والباكستانيين، ولن تجدوا صعوبة في الوصول إلى هناك.

«في ساحة السبخه يوجد مطعم عائشه، أكبر مطعم هناك. وإلى جواره سوق البتان تستطيعون أن تشتروا منها ما تحتاجون.

«بعد ظهر الجمعة سوف أحضر مع الشخص الذي سوف ينقلكم إلى أبو ظبي بواسطة سيارات الجيب».

هذا الرجل يعرف كلّ الطرق الصحراويّة المؤديّة إلى أبو ظبي.

وظهر تلك الجمعة كان مطعم عائشة يضمّ كل الدفعة التي جاءت على ظهر ذلك القارب.

شدّوا بعضهم بالسلام الباكستاني.

محمد خان ضمّهم وضغط بقوة على ظهورهم، ثم عانق أسلم خان عناقاً حاراً، ومازحه قائلاً:

ـ هل رميت سلاحك الذي تخبّئه تحت سروالك؟

ضحك وأجاب:

ـ بل اشتريت خنجراً جديداً من سوق البتان. هنا تباع سكاكين وخناجر جميلة وقاطعة.

ـ ماذا لو خَدَعَنا هذا البدويّ القزم؟

قهقه قائلاً:

ـ سوف أفرمه فَرْمَ الخيار!

أشار محمد خان إلى رجل قصير جداً لا يتعدّى طوله المتر والنصف. يرتدي ثوب عربي ويلف رأسه بعمامة بيضاء.

تبسم الجميع ثم قال محمد خان:

ـ هذا هو الرجل الذي سوف يقود قافلة السيّارات عَبْرَ الصحراء الى أبو ظبي. بعد الغروب سوف نتحرك جميعاً، نسير على الطريق الممهّد أولاً حتى جبل علي، ثم ندخل إلى الصحراء حتى نتحاشى سيح الشعيب، تلك المنطقةَ المكشوفةَ التي تُمكن ملاحظةُ أنوار السيارات فيها. أما داخل الصحراء، فالكثبان الرملية والطرق البعيدة تساعد على عدم كشفنا من قِبل دوريات الشرطة التي تحرس مداخل أبو ظبي.

كان محمد خان يحدِّثهم حديثَ المجرّب، بينما الرجل القصير يستمع ويهزّ رأسه وكأنه يفهم ما يقوله محمد خان لهؤلاء الرجال.

كان ذلك اليوم من الأيام المشهودة في حياة داد خان واسلم خان.

قبل الوصول إلى سويحان كان كمين الشرطة قد أُعِدّ بإحكام. ولم ينجُ من هذا الكمين غير محمد خان والبدويّ القزم الذي ساعده قِصَرُه على الفرار والاختباء تحت الأشجار والكثبان الرملية. كذلك فعل محمد خان الذي كان يقلِّد ما يفعله القزم.

وقع الآخرون في الأسر. وحده اسلم خان رفض الاستسلام ودخل في صدام مع الشرطة معتمداً على سلاحه وخنجره الذي خبّأه، فأصيب وتمت محاكمته بصورة مختلفة عن الآخرين الذين أمضوا شهراً واحداً في السجن ثم أعيدوا إلى بلادهم، بينما أكلت الأعوام الشيء الكثير من

---

* ـ قاص، عضو اتحاد كتاب وأدباء الإمارات، صدر له حتى الآن: **الطحلب** (قصص)، **عصفور الثلج** (قصص).

عمر أسلم خان، كانت كافية أن تفجّر براكين الغضب والحقد على كل شيء في هذا البلد.

أحسّ أنه خُدع من قِبَلِ نصّاب كبير هو محمد خان، وضحك عليه قزم صغير، فخسر في هذه الرحلة الملعونة كل شيء: أرضه، والمرأة التي كان يسعى من رحلته إلى هذه المنطقة أن يعود بمهرها.

بعد هذه الحادثة عاد مرة أخرى، وكذلك دادا خان لم يكن بحاجة لشرح محمد خان وتأكيده أنْ لا صعوبة في الوصول إلى هذا الساحل. علّمته التجربة أن يكون أكثر حذراً وأن يبتعد عن عيون الشرطة أو يدخل في مشاكل مع أحد. هكذا يؤمن دادا خان، عكس ما يفكر فيه اسلم خان. فلقد جرّب الكثير من الأعمال: شقّ الطرق والعمل في المزارع وشركات المقاولات والبناء، بل إنّه فَرَشَ بسطةً في سوق السبخه وسوق العين لبيع الصعود أو المذغه (الكنه) والمرايا الصغيرة وخيوط الأحذية. وكان يخرز الأحذية ويصلحها أيضاً.

الشيء الوحيد الذي أحس أنه يمكن أن يحقّق له النجاح، هو أن يعمل بائعاً للأقمشة.

بدأ يحمل صرة كبيرة ويطوف بالحارات والمناطق الشعبية وينادي:

ـ ليلام.. ليلام..

كثيراً ما نغّص عليه هذا العملَ الذي يحبّه رجالُ التفتيش العمالي، واستطاع أن يفلت أكثر من مرة، وهو ما دعاه أن يذهب إلى المناطق البعيدة والنائية عن المدينة.

يتذكّر دادا خان موقفاً آخر بعد أعوام من حادث القبض عليه مع ذلك المهرّب الذي أخفته الظروف.

عاد صاحبه أسلم خان مرة أخرى. كان يبحث عن شيء واحد فقط، هو مكان وجود محمد خان والرجل القصير.

كان يردّد بغضب:

ـ سوف أفرمهما مثل الخيار إنْ وقعتْ عيني عليهما. ولن يفلتا أبداً. وهذا التاكسي سوف أطوف به كل الإمارات قريةً وحيّاً، وفي نهاية الأمر لا بدّ أن يقعا وأنتقم منهما.

كان يحادث صديقه دادا خان، وسيارةُ الأجرة البيجو الطويلة تنهب الطريق بين دبي وأبو ظبي. عمائم الأفغان والبتان والباكستان تحتلّ المقاعد. وحده خميس بن عبيد الرجل العجوز أخرج رأسه من نافذة السيارة يتفكّر في التغيّر الكبير الذي حدث لهذا الساحل والصحراء، وتؤذيه الأصوات الغريبة التي لا يفهم منها شيئاً.

كان سابحاً في عالمه الخاص، وكأنّ هذا الطريق الطويل شريط مليء بالصور الماضية.

عندما مرّ بسيح الشعيب تذكر أنه قطعه يوماً على ظهر ناقة من أبو ظبي إلى دبي واحتاج إلى أيام وليال ليقطعه.

وعندما مرت «غناضه» على شماله تذكّر قاربه الصغير الذي جدّف به طويلاً في الخيران. كان ينصب شباكه في عرض البحر ليحصل على أجود الأسماك.

تذكّر طريقة الصيد (بالسكار) والخير الوفير الذي يحصل عليه. وعند العودة كان يحتطب من أشجار القرم التي يبيعها في أسواق أبو ظبي أو دبي.

كانت المناظر الجميلة التي يصنعها البحر المنساب بين أشجار القرم وطيور الخصيفي والفنتير والنوارس لوحاتٍ بديعةً يؤطرها الهدوء والسكينة.

لقد ذهب شيء هامّ من حياته. لم يكن من صوتٍ وَقْتَها غيرُ صوت الموج الهادئ الذي يداعب الشاطئ وطيور البحر التي تغنّي للماء والأسماك أو نشيد بحار يَعْبر بقاربه الصغير وسط تلك الأشجار ويغنّي:

ـ «الهوى طبعته، حريم السودان

حلفن ما يركبنه هذي السنة والعام».

لا رائحة غير ماء البحر.

سأل دادا خان صاحبَهُ أسلم خان عن إصراره على تنفيذ تهديده، فأجاب بحسرة بعد تنهيدة طويلة:

ـ بعد التجربة الأولى التي امضيتُ فيها سنوات طويلة في السجن، التقيتُ بمحمد خان، فاقنعني بالعودة مرة اخرى، وبان الوصول إلى ابو ظبي هذه المرة اسهل وبطريقة مضمونة، وذلك عن طريق البحر. وبالطريقة التي تعرفها وصلتُ دبي ثم مطعم عائشه.

جاء محمد خان والرجل القصير، وقالا:

ـ إنها ساعات عبر البحر وبواسطة القارب وسوف نكون على شاطئ ابو ظبي.

انطلق القارب وتكدّسنا كالأغنام في باطنه. تعلّمْ اننا رجالُ جبلٍ لا رجال ماء، فلم نعلم إلى ايّ جهة كان سير القارب. وقبل الوصول اشار لنا النوخذ بان لا ننطق باي كلمة وان ننام في القاع. خفت سير القارب، اشار النوخذ بان الشاطئ الآن يقترب وعلى كل واحد أن يستعدّ للقفز، ثم اشار بضرورة ان نفترق عندما نترك القارب.

كان الليل في أشدّ سواده والسكينة تحتل المدينة.

لا شيء غير صوت محركات الديزل تهدر من بعيد.

لامس القارب الشاطئ الرملي. ولم تكد تلامس اقدامنا الأرض حتى انطلقتْ زخاتٌ من الرصاص باتجاه النوخذ والقارب، وطوّق رجالُ الشرطة الزورقَ وتشابك النوخذ وبعض الأفراد مع رجال الشرطة، وكنت واحداً منهم.

هذه المرةَ أودعتُ السجنَ فترةً أكبر.

وهكذا دمّر محمد خان والرجل القصير حياتي مرتين.

قال محمد خان:

- إنّ هذا البلد لا يحرسه ناسه. الشرطة والجيش أكثرهم من بلدان أخرى، لذلك لا يهمهم كثيراً حراسته او تعريضُ أنفسهم للخطر أو متابعةُ مَنْ يدخل او يخرج. هذا البلد للناس جميعاً!

لقد كذب علينا وأوهمنا أنها أرضٌ من السهلِ دخولُها والخروجُ منها متى نشاء، ولكننا لم نجد غير العذاب والسجن والمطاردة.. إنني أكره كل شيء الآن في هذا البلد!.

وصلتْ سيارة البيجو إلى محطة انتظار الأجرة فتقافز الجميع، بينما أخذ خميس بن عبيد يجرّ نفسه جراً حتى وطئت قدمه الأرض. ولم يمهله السائق إذ انطلق اسلم خان بسيارته، فأخذ العجوز يصيح ويناشد المارةَ اللحاقَ بالسائق الذي أخذ صرّته معه.

وعلى أصوات الناس وضجيجهم وإشارات السائقين عاد كالسهم. فتح الشباك وقال بحمق وغضب:

- (بداه) هذا كشره مالك.

ثم انطلق.

نهض العجوز كالذي عادت له روحُهُ بعد فرارها.

سأله الناس: كلّ هذا الحزن والألم على هذه الغافه البالية!؟

قال: إنها كل شيء بالنسبة إليّ.

عندما وصل إلى منزل ابنته في البطين كان بين الحياة والموت لشدة ما أصابه من الإرهاق والتعب. بعد يوم مات العجوز، وكانت المفاجأة أن تلك الصرة تحتوي على مئات الألوف.

غاب أسلم خان فترة طويلة، لم يلتقِ بصاحبه دادا خان الذي انشغل هو الآخر بحمل لفافته الكبيرة التي تحتوي أنواعاً كثيرة من الأقمشة، يطوف بها الأحياء البعيدة. بعد هذا الغياب الطويل ظهر أسلم خان للأفغان هناك في أحد المساجد، وأنّ أسلم خان هو الذي يقود هذا التجمّع. ولاحظ دادا خان أنّ لهجة أسلم خان تأخذ مشروعية الوجود في المنطقة والدعم المفروض تقديمُهُ للأفغان، إذ إنّ كل أرض لك ما دام هدفك الدفاع عن مبدإٍ أشمل!

لم يدرك دادا خان القصدَ من حديثٍ يتخطى البحثَ عن لقمة العيش والحياة الكريمة كما يفهمها.

قال أسلم خان:

«عندما يُسند ظهرَكَ الجبلُ فإنّ إحساساً عظيماً يُشْعرك بأنك قوي مثل الصخر.

«لا أحب الرمل فهو متحرك، ونسمة صغيرة تستطيع أن تغيّر كل شيء وتخلق منه شكلاً آخر. إنّ الرجل الصحراوي إنسان عاطفي تتغير مواقفه، مثل تلال الرمل التي تذروها الرياح! ولقد اخترتُ منطقه العين وبالذات جبلَ حفيت لأشعر بصلابة عودي وقوته. إنّ آلافاً من البتان والأفغان سوف يجعلون من هذا الجبل متراساً لخطوة قادمة. ويذكّرني هذا الجبل ومغاراته بالجبال هناك»!

كان يحدّث مجموعة صغيرة من الأفغان، وحين كان دادا خان فاغراً فاه نامت المجموعة. وحده لم يذق النوم، وبقي سارحاً في تفكير عميق في أبعاد الكلام الذي طرح.

سمع اسلم خان يتحدث مع أحدهم بصوت خافت:

«عدتُ قبل أيام من بندر عباس، وقد عاهدتُ غلام عباس مشهدي أن نعمل بوصية الإمام. وسوف نفعل المستحيل، والمطلوب أن يعمل بعضنا في شركات النفط وحقول البترول، ومحطات الكهرباء، والاتصالات، والدوائر الحكومية.

«ولقد أكّد غلام مشهدي أن الكثير من الرجال الأوفياء الذين يعملون في الدوائر الهامة والشركات عند الحاجة سوف يساندون كل مخلص للوصية! والحق أن غلام مشهدي رجل ذكي وعالم فطين. وقال:

- نحن ضلع فرجار كبير، هذه القدم الأولى نضعها بكل ثقة على سطح البحر/الجزر كالملائكة، ثم القدم الأخرى في المستقبل على اليابسة حتى نصنع دائرة كبيرة، يشعر كل من يقع فيها بعظمة الدولة الحلم! وعليكم الوصول إلى هذا البلد بكثافة. وانت يا اسلم خان إنسان جبليّ وشجاع تعرف عبور الجبال والوديان، ولن يكون صعباً ان تعبر بالعناصر التي سوف نختارها من الشباب. فمن رؤوس الجبال على الحدود العمانية إلى داخل القرى والمدن سوف تساعدك خبرتُك الطويلة في الوصول والعودة عبر هذه الطرق على توضيح ما يجب لهؤلاء الرجال الذين سيكونون سنداً قوياً لنا في المستقبل. إننا نتكفل بتامين القوارب والنواخذة وبعض الدراهم، من بندر عباس او

لنجه أو بعض الجزر. فالمسافة قصيرة، ولن يعترض طريقكم أحد من هذا الجانب».

فرّ دادا خان مذعوراً مما يسكن رأس أسلم خان. وازداد رعباً عندما علم أن أسلم خان كان يقود تمرد الأفغان والبتان في جبل حفيت، كما قادَ المجموعةَ الآسيويةَ التي اشتبكتْ مع رجال الشرطة احتجاجاً على هدم مسجد في الهند. ولم يعد يتّصل بالشيطان اسلم خان، كان همه الأكثر أن يوفّر الدراهم بكل الطرق.

لقد أصبح الآن رجلاً آخر.

غزو كبير داهم رأسه، وخلخل هذا الجبلَ الصلب.

ها هو يطوف كل الأحياء الشعبية من الساحل إلى الداخل: المرموم، حتا، العين، العوير، الخوان وجميرا. له حكايات كثيرة وتجارب مرة، منذ أن وطئت قدمه هذه الأرض. وهو يتحدث عن تجاربه الخاصة وعذاباته بحسرة.

صوت يطرق الأبواب القديمة:

ـ ليلام.. ليلام.

نسمة هواء طائشة

عبد الحميد أحمد*

زعموا أن ناحل بن راجل العاري الملقّب بأبي جائع المطحون كان يمشي هائماً ذات مساء مثقلاً بالدبق والرطوبة، إذ داعبته نسمة هواء طائشة تحمل رائحة اللّحم المشويّ. كان يحمل رأساً صغيراً، يشبه رأسَ سلحفاةٍ عمرُها ألفُ عام، تصله بكتفيه العريضتين وصدره الواسع رقبةٌ دقيقةٌ كالحبل، وفي وجهه غاصت عينان صغيرتان ذابلتان، بينما امتدّ منخاراه إلى الأمام طويلين كخشم المهرِّج.

شعر ناحل بلذّة غريبة إذ التقط أنفه رائحة اللحم العابقة في الطريق المزدحمة بالناس. في البدء اقتحمت خياله، ثم صعدت إلى رأسه كالسحر، ثم نزلت إلى بطنه كالحصى، ليجد أن لحيته التي لم تطلها موسى الحلاقة منذ مدة طويلة قد تبللتْ بلعابه الذي خرج من جانبيْ فمه ليسيل لزجاً. وصار، وهو يمشي مهموماً تحمله قدمان مفلطحتان عريضتان، يمضغ لحماً مشوياً، كباباً، وتكة وريشاً. ولم تصدِّق «مسحوقة» أنّ أبا جائع يأكل لحماً، إذ دخل عليها البيت في المساء، فنهضتْ إليه خفيفةً كعنزة جبلية، وقالت له:

ـ أأَحلم.. أم حقيقة؟

ـ حقيقة يا أم جائع.

وسألها:

ـ أين جائع، وأين مقهورة ومقموع؟

ـ ناموا جميعهم.

وأضافت:

ـ يا حسرتي، مثل كل ليلة.

لكنّ أبا جائع همس لها بإصرار:

ـ أيقظيهم.. اللحم كثير، ولا يمكن أن يناموا وبطونهم خاوية.

لحظات، وكان ناحل ومسحوقة وأولادهما يتحلقون حول «موقد» أينعت فيه النار جمراً محمرّاً، وأثمر لحماً بهيجاً يفوح منه عطر أخّاذ. وبينما كان أبو جائع يجلس صامتاً كان يقلّب عينيه بين امرأته والأولاد الضاجّين بالمرح وهم يتناولون القطع الساخنة ويمضغونها في اشتهاء ويمصمصون العظام الليّنة، وقد أشرقتْ فوق وجوههم الباهتة شمسٌ صغيرة لامعة، ثم يدفعها باتجاه الدخان الذي غمر فناء البيت في دوائر متّصلةٍ سرعان ما يحملها الهواء بعيداً لتتلاشى. وكانت مسحوقة تقطع عليه صمته بين فترة وأخرى وهي تثرثر:

ـ ليتنا كلّ ليلة هكذا.

ويردّ عليها باقتضاب:

ـ سنأكل لحماً كثيراً... وكلّ ليلة منذ الآن.

ـ وسنخرج إلى الحدائق مع الأولاد.

ـ عليك أن تهتمّي بصحتك يا أم جائع.

ـ لماذا؟ وهل أنا أهمل صحّتي؟

ـ ولدنا القادم أريده سميناً معافى.

ـ قل إنْ شاء اللّه يا رجل.

ـ إنْ شاء اللّه.

ـ هل ستسهر معي الليلة؟

---

* ـ عبد الحميد أحمد: قاص، وكاتب صحفي، ومدير تحرير جريدة **البيان** ـ دبي، ورئيس اتحاد كتّاب وأدباء الإمارات السابق، والأمين العام لمؤسسة سلطان بن علي العويس الثقافية. صدر له حتى الآن: **البيدار** (مجموعة قصص)، **السياحة في خليج يتوحش** (قصص)، **على حافة النهار** (مجموعة قصص)، **مع الناس** (مقالات صحفية ساخرة).